

## الدلالي والجمالي في رواية «السيل» لأحمد التوفيق

الدكتور أحمد زنيبر - المغرب

أستاذ باحث - الرباط

حققت الرواية المغربية، على فترات زمنية متعاقبة، انتشارا واسعا، تجلت معالمه في توالي الإصدارات المتباعدة، بناء وتصورا وموضوعا، من جهة، وما صاحب ذلك من متابعات ودراسات نقدية متنوعة، على مستوى التلقي، تباينت توجهات أصحابها مذهبيا ومنهجيا وتحليلا، من جهة ثانية.

وقد تحكمت في هذا الذبوع الروائي المعلوم، جملة أسباب موضوعية ورمزية، منها وفرة الطرائق التعبيرية، التي يقترحها هذا الجنس الأدبي، سردا ووصفا ورسالة، ومنها كذلك جملة الخصائص الفنية والأسلوبية، التي يختزلها كعناصر بنائية داعمة له، لغة ومعجما ودلالة.

ومن ثمة، لا غرابة أن نجد بعض الأعلام الإبداعية بالمغرب قد انتقلت من كتابة الشعر أو القصة القصيرة مثلا، إلى كتابة الرواية، وأن نجد منهم من امتحن الطب أو الفلسفة أو القانون؛ لكنه لم يجد ضالته الأدبية إلا في رفقة الرواية، اختيارا وتمثلا وتعبيرا. ولعل أحمد التوفيق يعد خير شاهد على ذلك. فمن التاريخ والكتابة في التصوف، يلج هذا الأخير، عالم الرواية ويعزز المشهد الثقالي بأربعة أعمال متميزة قمينة بالقراءة والمتابعة والمساءلة، هي على التوالي: "جارات أبي موسى" و"شجيرة حناء وقمر" و"السيل" ثم "غريبة الحسين".

وتعني في هذه المداخلة المتواضعة، روايته الثالثة الموسومة بـ"السيل" باعتبارها المنجز الثالث في مساره الإبداعي، من جهة، وبوصفها تمثل جزءا من تجربة الكتابة لديه، من جهة ثانية. فماذا عن المنجز الأدبي؟ وما نوعية القضايا والأسئلة التي يطرحها؟ وبالتالي، إلى أي حد يمكن الحديث عن قيمة أدبية مضافة تتخلل مادته الحكائية؟

## في المنزع الدلالي:

لاشك أن أول اتصال أدبي يحدث بين القارئ والنص، يتم عبر العنوان الذي اختاره الكاتب لمنجزه الروائي "السييل" باعتباره عتبة مركزية توجه، بصورة أو بأخرى، عملية القراءة وتخدم مسار البحث والتحليل النقدي. فكلما السيل لفظة مفردة معرفة بـ"ال" تدل على معين. هذا المعين حدث له صلة بالطبيعة، في ارتباطها الوثيق بالزمان والمكان. إنه مطر جارف ينحدر من أعلى الجبل إلى الأسفل، لا يخبر بموعد، ولا يستأذن بقدوم. فيض مائي هو، حيث الحركة والاندفاع والقوة والسرعة، يأتي على الأخضر واليابس، يدمر ما حوله ولا يتراجع، فتحصل الكارثة، وقد تجاوز الطبيعة إلى الإنسان، في ذات الآن. وبين الفجائية الكاسحة والفجائية الجارحة، لا يبقى إلا الأثر وشظايا الغضب. كل هذه الإحالات وغيرها، نجد لها موقعا ضمن أحداث ووقائع الرواية ونجد لها - أيضا - ملامح وعلامات تمس درجة الوعي في تجربة الكتابة.

ولعل اختيار أحمد التوفيق لروايته عنوان "السييل"، كونه حدثا طبيعيا، عائد بالأساس لما في ذلك من دلالة قصدية ورمزية معا، في بناء الحكاية، من ناحية، ولما له من وقع بليغ على مسار بطلها الرئيس، من ناحية ثانية، ولما تثيره العلاقة بين الحدث والشخصية أو الشخصيات من أسئلة وقضايا وجودية متعددة، من ناحية ثالثة، نجملها في ثلاثة أسئلة جوهرية كبرى، هي:

### \* سؤال القدر بين القبول والرفض

تقترح الرواية حكاية رجل بسيط عاش حياة متقلبة بين القرية والمدينة، خلالها تنازعت أحوال الطبيعة، بدفئها وقسوتها، وغالبته تناقضات الزمن، بخيره وشره. حكاية تقترب من عالم السيرة بكل تداعياتها المختلفة، حيث استحضار الذاكرة واستدعاء الماضي من أجل استقصاء دقيق وعميق لكل المراحل والمفاصل، التي تؤثت فضاء الشخصية الروائية، في انفعالها وتفاعلها بالذات من جهة، وبالواقع والأشياء من جهة ثانية.

يتولى الروائي، على امتداد ستة وعشرين فصلا تفاوتت مساحتها الورقية حجما ومحتوى، بضبط إيقاع السرد وفق تسلسل زمني للأحداث، صعودا ونزولا، دون التفريط في العناية بوصف الأماكن والشخصيات المساهمة في تفسير طبيعة العلاقة بينها وبين الشخصية الروائية. وقد شكل حدث السيل مادة خصبة حركت، عبر اللغة، الحكاية وأسرارها، وكشفت قضاياها المعروضة عن نوعية الخطاب ورمزية الرسالة.

ومن ثمة، كان الجمع بين الحدث والشخصية، فى اتصالهما وانفصالهما، مقوما بنائيا اعتمده الكاتب فى طرح أسئلته الوجودية وتأملاته الفكرية، أثناء عملية السرد. فماذا عن بطل الرواية؟ وما علاقته بحدث السيل؟

يقدم السارد، منذ الأسطر الأولى، بطل الرواية بوصفه شخصية محورية تدور حولها الأحداث والوقائع، وتتحكم فى مساراتها الإنسانية صور مختلفة تتسجم وطبيعة المواقف والحالات النفسية التى تؤطرها. ومادام سارد الرواية من النوع العارف والعالم بكل تفاصيل وجزئيات الحكاية، إذ هو المخطط لمسار البطل والضابط لإيقاعاته المختلفة؛ فإن عملية الحكى تمت بشكل تدريجى تنتصر للفعل حيناً، ولردة الفعل حيناً آخر. ولعل حضور فعل الكينونة (كان) بدلالته الماضوية، داخل النص، يؤكد حرص السارد أثناء عرضه لسيرة البطل، على تراتبية الأحداث وتسلسلها المنطقى، من البداية إلى النهاية، من جهة، وما يستتبع ذلك من معاينة وصفية تتعلق بالأفضوية والأمكنة وبملاح الشخصيات وسلوكياتهم، من جهة ثانية.

وهكذا، قبل أن يعرض السارد لحدث السيل، يعرف بشخصية (محمد بيزين) ويبسط القول، حكياً واستطراداً، فى ظروف الولادة والنشأة. يقول:

"كان محمد بيزين راعياً عند أسرة آيت بلا فى قرية بقدم جبل الأطلس الكبير. وقلم ناداه أحد فى صباه باسمه، محمد، ولم يدر هو ما معنى لقبه بيزين ومن سماه بذلك الاسم. لم يعرف أباه، لم ير أمه، لأن الأب فى الحقيقة كان، على ما سمع الولد، عطاراً أصله من الساقية الحمراء." (ص ٥).

والواضح أن أول ما يصطدم به هذا الطفل كان هو قدر اليتيم والحرمان. فهو المولود الذى نزل إلى الدنيا من دون أن ينعم، مثل باقى الأطفال، لا بطعم الأبوة ولا بفرح الأمومة، فقد توفيت الأم أثناء المخاض، وفر الأب بعد علمه بحملها بأشهر. غير أن القدر، بوصفه قوة فاعلة فى النص، سرعان ما أبان عن تعاطفه مع البطل حين تولته أسرة اعتنت به وضمته إليها...

ومع الأيام، يظهر البطل/الطفل نباهة وذكاء وقدرة على العمل؛ غير أن مكر الأطفال وتآمرهم عليه فى غير ما محاولة، ضاعف إحساسه بالنقص والدونية، وعمق شعوره بالحزن والألم والقرف من الناس ومن الحياة، على إثره تولد لديه رغبة فى الرفض والتأثر والانتقام. يقول السارد:

"ومع توالي الأيام تكاثرت أخطاء بيزين في حق سيده، فقد صار مندفعاً لارتكاب الهفوات وهو يعرفها، كأنه يجد راحة ما في الخطيئة، فقد تعددت تشكيات الذين اعتدى بيزين على أولادهم بمختلف أنواع العدوان، ووقعت الوشاية به لسيده لأمر كان يقترفها، منها أنه كان يحرص في مسارحه على منع الفحول من طرق الأبقار، يجد لذة في ذلك الحرمان، لا يدري أكان ذلك انتقاماً من الثيران أم من الأبقار أم من أسياده أم من الحياة؟" (ص ١٥).

ويتمكن الطفل، بعد مدة من حالة الرفض، من استرجاع توازنه واعتداله حينما تلقى من سيده أنواعاً من العقاب القاسي، من جهة، وحينما أحس بالفرح والارتياح يوم أكله، هذا الأخير، عملاً جديداً، من جهة ثانية. فرعي الغنم بالغابة عوض البطل أيام الملل والضجر، وأشعره بقيمة نفسه التي جبلت على المخاطرة والرغبة في التحدي والمغامرة. ومن وقتها ألف محمد بيزين الغابة واستأنس بها، مكاناً بديلاً عن مسارح البقر وتقاهة البشر، وارتضى حياته لمدة صار خلالها الجبل جزءاً من هويته يرعى في سلام صحبة كلبين مروضين وناي صنعه بيده. يقول السارد عن هذه الألفة:

"لم يصطد بيزين من طير الغابة وحيوانها لأنه يشعر وكأنه قطع معها عهداً على ألا يفعل ذلك، وهكذا دخل مع أهلها في وثام أبدي، ثم إنه يؤمن بأن هذه المخلوقات التي تسكن الغابة أكثرها مسكون بالجن، آمن بذلك منذ أن وقعت قصته مع ذلك القنفذ الذي سلخه في صغره وأورثه حالة بكاء يعتريه وصرخة تفتت الأكباد." (ص ١٩).

وفي ظل هذا التحول الإيجابي، في مسيرة البطل، حيث التصالح مع الذات والاطمئنان إلى المكان، فضاء للهدنة والأمان، يواصل الكاتب/السارد عرض حياة البطل بيزين؛ إذ يتعرف هذا الأخير على أرملة اسمها "لومي"، حركت مشاعره ووجدانه، ثم صار يلتقي بها دونما اكتراث بالناس أو بتقولاتهم المغرضة. لقد أحس بيزين مع هذه المرأة بالفخر والنخوة وقدر فيها شهامتها واهتمامها الكبير به. فهي "في الحقيقة أكثر من امرأة" بتعبيره (ص ٢٥) وكثيراً ما حرصته ليثور على كل من حواليه، ويوقظ ذلك الإنسان/الرجل داخله، ويغير من مواقفه السلبية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) وتبعاً لذلك، تحضر المرأة بكل ثقلها الأنثوي والإنساني في الرواية،

وتصاحب البطل في مختلف تحولاته وتبدلاته لتكون له خير معين، حين يحل به سخط الحياة. وما استثمار الكاتب لهذا الحضور النسائي؛ إلا ليمنح البطل بعض التعويض المعنوي عن غياب المرأة/ الأم في حياته. ومن ثمة، يعيد للذات الإنسانية بعض التوازن والاستقرار النفسي.

لكن سوء الطالع، مرة أخرى، جعل الرياح تجري بما لا تشتهي سفن البطل، حيث كسرت مجاديفه، وعاكست نجاحاته، فاختلط عليه الحابل بالنابل، والحلم بالحقيقة، والأمن بالخوف، والقبول بالرفض، والأمل باليأس والخيبة. فها هو ذا السيل، ذات صيف وفي يوم من أيام شهر (غشت)، يطيح برؤوس أغنام سيده جلها، ويفقده كلبه الأليفين معا، فيما هو نائم يحلم بكوايس مرعبة سرعان ما تحققت في عالم اليقظة، فقد حلت الكارثة المروعة وانتشر الخبر في القرية بسرعة البرق.

ذهل بيزين مما حصل، وتألّم مما رأى، وتنازعت هواجس الخوف والألم، وركبته نزعة التحدي والانتقام. ولم يدر ما إذا كان هذا الحدث الطبيعي قضاء وقدر له فيه خير، وهو الذي لا يستطيع لرد القضاء سبيلا أم شرا مستطيرا أتى ليدمر حياته، ويزيد ذاته تشظيا وتمزقا<sup>٩١</sup>. فكر في الهروب، لكنه تذكر فرار والده العطار فكره هذا الاختيار! وفضل البقاء بالقرية ومواجهة مصيره، بكل ما أوتي من قوة وثبات. يقول السارد:

"وهكذا قرر أن يبقى، أن يستسلم للقدر، أن يواجه الغضب والعقاب من لدن أصحاب الغنم والآخرين من المتفرجين والمتقولين، وقرر أن يبقى على الخصوص حتى يواجه صاحبته لومي ويقول لها: ها أنت قد حققت ما كنت تسعين إليه، أن تحرريني عبر العذاب، أن تدفعي بي إلى الهجرة. أنت السبب! إنه متيقن أن السيل هو جواب الغابة الذي كان يتوقعه، جوابه عن الأحلام التي رآها عندما صعدت إليه لومي في الجبل، ولكنه ليس متأكدا مما إذا كانت تدفعه إلى نهاية هي خير له أم إلى حتف هو شر له..<sup>٩٢</sup> (ص ٣٥) وحين عاد بيزين إلى نقطة البداية، حيث التلاشي وقلة القيمة، تعرض لأسوأ معاملة وتشنيع من لدن سيده وأهل القرية، كما مارس عليه ابن شيخ القرية أشد العقاب فيما اتهمت معه الأرملة "لومي" وابنتها "منوش" بالمشاركة. ولم تنته محنة البطل إلا بتدخل رجال السلطة. فكان ذلك بعضا مما خفض عنه وطأة العذاب، وأعاد له الاعتبار مرحليا قبل أن يغامر بالهجرة نهائيا بحثا عن ذات/رجولة مفقودة ومفتقدة داخل القرية.

يقول السارد: "صار بيزين بعد الذي وقع يتردد علانية على دار لومي وهي تقرح به وهي تحرضه حتى يهاجر ويكون رجلاً" (ص ٤٧).

فأين كانت الوجهة؟ وهل حقق بيزين ما كان يصبو إليه؟ ومن هم الشخصيات الجديدة التي ناصرته أو خذلته أثناء هذه الرحلة؟

### \* سؤال الذات بين الخير والشر

لم يفث السارد، وهو يتابع رحلة البطل الوجودية وتموضعاته بين حالات الرفض والقبول، والسخط والرضى، والكفر والإيمان.. أن يضع اليد على بعض المسببات، التي كانت وراء هذه الرحلة نحو المجهول، وبالتالي تقديم أحكام وخلاصات بشأنها، كلما وجد لذلك مبررا. فإصرار "لومي" والحاحها على السفر كان دافعا قويا لكي ينطلق البطل في رحلة البحث عن الذات.

يقول السارد: "احتقن وجهه وهو يصرخ، ثم أجهش بالبكاء... وارتمى في ذراعيها... احتضنته وبكت وقالت: اذهب، اذهب، أريدك أن تكون رجلا. فمند ساغر أخي صار رجلا. لا أريد أن تبقى مسخرا لهؤلاء، لا أريد...!

فقال بيزين: ولكنني أفتك وصعب علي أن أفارقك.

فقالت المرأة: أنت صغير السن، وهذه ألفة الصغار، وتصلح لك بنتي عندما تعود، إن بقيت راضيا بنا.

عاد بيزين إلى بكائه من جديد أمام المرأة وبكت هي أيضا" (ص ٥٠).

إن استسلام البطل وتقبله للقدر، من حيث هو سلطة غيبية تحكم العالم بمنطق الخير والشر، جعل أحداث الرواية تنساب وفق تبدلات المكان والزمان والإنسان. فعالم ما وراء الجبل بدا غريبا وعجيبا في نظر البطل مقارنة مع حالته الأولى بالقرية. ولما كان لزاما على البطل كسب رهان هذه الرحلة/الغامرة، كان عليه بالمقابل أن يتأقلم مع الوضع الجديد في المدينة، ويدخل في علاقات وتواصلات متنوعة مع أهلها وناسها. كما كان عليه أن يتعلم لغة المدينة، ويلبس لباسها، ويخبر أسرارها.

ولعل الكاتب لم يتوان لحظة في رصد مختلف التحولات، التي عاشها البطل، في سنواته الأولى داخل المدينة، مظهرا وسلوكا ومواقف، فقد رسم له بعض الصور الراقية عن إخلاصه

فى العمل، وتفانىة فى الخدمة، وسعفة وراء الكسب الحلال فى صبر وأناة، حتى صار حدىث مجالس فى المىنة وفى القرىة، وذاع صىته فى الآفاق. كما تابع شذوذه وانجرافه وعدوانىته وهو فى غمرة النجاج والاستعلاء. وهما منزعان اثنان (الخىر والشر) ظلا فى وجدان البطل ىتصارعان وعرضاه، فى كثر من الأحيان، إلى الاضطراب والاختلال.

لقد شكلت المىنة بالنسبة للبطل، من خلال ملاحظاته ومشاهداته عالما مغربا بالبحث والتأمل والطموح والرغبة. غير أنها كانت، إلى جانب ذلك، مىنة تعج بالفتنة والمتناقضات قلبت مسار البطل ذات اليمىن وذات الشمال لىجد نفسه أسىر إغراءاتها غير المتناهية. إنها بتعبيره "أكثر من مىنة واحدة، فهى مىنة صاحب الميزان، ومىنة الفئران، ومىنة المنقبىن وأواني القمامة، ومىنة العاملات اللائى يأتىن فى الفجر إلى المعمل، ومىنة الأشرار الذىن اعتدوا علیه، ومىنة دار فارىاس، ومىنة زوجته فىبى... فى كل مرة ىحسب أنه انتهى إلى آخر العلم والإعجاب بالمىنة، فتقله الرىاح إلى جهة أخرى فىقف على جدىد لم ىكن ىتخيله" (ص ٦١).

وتحضر المرأة، من جدىد، فضاء المىنة مثلما حضرت سلفا فضاء القرىة، فىحترار البطل فى سلوكياته واختياراته، كما ىحضر ها جس السبل لىده، فى غير ما مناسبة، فلا ىدرى أنقمة كان أم نعمة؟! وهكذا حىن استبد شبح المىنة بالبطل وسلخه من قىم القرىة، تطورت لغته وتغيرت مواقفه، سلبا وإىجابا. أحب المال، وأحب النساء، وكاد المكائد، ودبر الدسائس لغيره من أجل البقاء وارتقاء المناصب، حتى صار "ولدا أسطورة تتمنى النساء أن تلد مثله، وعرىسا تتمنى كل امرأة أن ىكون خطىبا لىبتها!" (ص ٧٠). لكن دوام الحال من المحال، كما ىقال، فقد شاء الله أن تعصف تقلبات الأيام بالبطل الزعىم وتحول نعىمه إلى شقاء وتعاسة، جراء ما بدر منه من خطايا الاستقواء، والارتشاء، والفحشاء. وما صراع الخىر والشر داخله إلا أحد الأسباب التى كانت وراء ضلاله واضطرابه. ومن ثمة، لم ىعد بحث البطل عن الذات، إذن، هدفا وغاية كما تسطر فى البداية، فقد استغنى وطغى وتجبر، فكانت الانتكاسة والضىاع والقهقرى، والدخول فى متاهات ملتوية لا قرار لها، فالفشل، والىأس والسجن، والرعب والخوف، والألم والحيرة.. كلها كانت له بالمرصاد، وصارت معها فكرة الرجوع إلى القرىة مطلبا مبررا.

يقول السارد على لسان إحدى شخصياته: "المال الذي في هذه الحقيبة يعادل مجموع ما تلقيته من أجرتك منذ جئت إلى المعمل، وهو في الحقيقة نصف أجرتك، كنت أدخرها لك، ويزيد عليه بمقدار ما تحتاج إليه لإقامة عرس بهيج في قريتك، تتزوج وتأتي بعروس تغار منها كل نساء المعمل، ولا تصلح لها خادمة أي من هذه الراقصات اللائي يأكلن مالك في السهرات، عيشك الله أيها الزعيم! اذهب شهرا كاملا إلى قريتك بمناسبة هذا العيد، وعد لنا بعروس!" (ص ٨٥). فهل وجد البطل ضالته؟ وكيف آلت عودته إلى بلده/الأم؟

### \* سؤال المصير بين الحاة والموت:

بعد تسع سنوات من البحث المضني بالمدينة عن مبرر للوجود، وضياح في متاهات مفتوحة لا تتقضي، عزم البطل أخيرا، على الرجوع إلى القرية عملا بنصيحة سيده، من جهة، وهربا من خبث المدينة ورذائلها، من جهة ثانية. وخلال تلك السنوات التي جمعت بين النعمة والنعمة، توافرت للكاتب مجموعة من المواقف والوضعيات المختلفة، التي سمحت بتكوين فكرة تقريبية عن طبيعة الشخصية الروائية وما يميز وجودها الواقعي والافتراضي، في الوقت نفسه. وشكلت بالتالي زادا روائيا قابلا للمساءلة والمتابعة.

غير أنه إذا بدت عودة البطل موفقة غاية التوفيق في البداية، حيث ترحيب الأهل والأصدقاء والجيران، وحيث الحفاوة والتكريم والامتنان، كونه حقق النجاح وشرف القرية والوطن؛ فإن ذلك سرعان ما تلاشى أمام سيل الأحداث الجسام الجديدة، التي وطنت صراعه الداخلي وعمقته خاصة حواراته مع «لومي» حبه الأول، وخلافاته مع أخيها «حوسا» حول عدد من القضايا المرتبطة بالمواقف والاختيارات الفردية، وكذا المرتبطة بالمشاعر وبالهموم الصغيرة منها والكبيرة. وحين احتد الصراع النفسي داخله لم يجد سوى تلك الغابة مقصدا وملاذا.

إن قدر البطل في هذه الرواية، أن تتقاذفه أمواج الحياة، بخيرها وشرها، وأن تتوزعه شواغل وعوامل كثيرة تمكنت منه حد التماهي فاستحال عليه، لضعفه الإنساني، الانفلات منها. فبقدر انفراج أيامه كان خوفه من كوابيسها وأحلامه، وبمقدار نجاحاته كانت إخفاقاته. فذكريات السيل، وضياح ماله، وحيرته في الاختيار بين نساء أحبهن، وتدهور حالته العقلية والصحية.. وغيرها من الأحوال المؤلمة عجل بسقوطه، ولم يعد أحد يعيره أي اهتمام.

يقول السارد: «عاد بيزين إلى الدار ذات ليل ولم يحفل به الناس لأنه صار معدودا في البلهاء المجانين، فقصته لم تعد سرا لأحد، وقد صار مظهره يخيف الجميع، فوجهه ينضح بالعرق بين الحين والآخر، ويثير حنق من يسترقون إليه النظر، وهو لم يخلق شعر لحيته منذ ليلة المطر، كانت تتعاوره حالات من الذهول وحالات من التمييز، إذا ذهل سال لعابه وتكلم في نفسه وأشار إشارات وغمغم، وإذا ميز وجم واستغرق أو بكى» (ص ١٢٦).

وأمام كم اليأس والإحباط والفشل هوت الذات، ذات البطل، إلى مهاو سحيقة، واتضح للمرأة «لومي» حقيقة كون البطل «بيزين» همها الأوحدها، وعبثا تحاول إقحام ابنتها في تلك القصة. وهكذا رغم تنكر أهل القرية للبطل، حين ساءت أحواله، ظلت هي إلى جانبه وفيه ترعاه وتنفق عليه حتى نفذ ما بيدها متحملة عنقه وجنونه وهذيانه، إلى أن سقطت مغشيا عليها، ذات يوم، حين رآته جثة هامدة بالغابة. وحين ظهر المال المفقود، مال البطل المفجوع عليه، قيل في شأنه أقوال وأقوال، وما ظفرت «لومي» الأرملة بشيء من إرث البطل لأنها كانت تفتقر إلى بينة على ما في ذلك من إشارة سريعة إلى وضعية المرأة ونظرة المجتمع لها في غياب راع يحمي حقوقها ويضمن أمنها واستقرارها.

وهكذا يكون الكاتب السارد قد أثار الانتباه، من خلال تتبعه الدقيق لمسار الشخصيات وعلاقتهم بحدث السيل وغيره، إلى جملة موضوعات تحمل قيما إنسانية ودينية واجتماعية مختلفة، كالحب والجمال والتضامن والتسامح والصبر والعدل وما سواها. وكلها قيم دالة عبر عنها، بغير قليل من المتعة الفنية، التي تعكس حيوية المعنى وديناميته في الرواية.

### في المنزح الجمالي:

لا يمكن الحديث عن دلالات رواية السيل لأحمد التوفيق من دون الحديث عن الجانب التعبيري، الذي يستقي عالمه من اللغة والخيال. فالكاتب كان شديد العناية باللغة بوصفها ترجمة خالصة لوقائع الرواية وأحداثها، وغوصا عميقا لنفسيات شخصياتها الرئيسية. ولعل رصد الحقول المعجمية في الرواية تكشف عن مظاهر القلق والتوتر والصراع داخل المجتمع البشري خلال مرحلة من تاريخه، وعبر هذه المظاهر وما سواها تقدم الرواية المقترحة «السيل» قراءة فنية وموضوعية للذات والكون معا.

كما أن استناد لغة الرواية على تقنية الاسترجاع، جعل الذاكرة تحضر بقوة حيث أوكل لها تأييد المشاهد وترتيب الوقائع، بحسب السياق والمواضع.

يقول السارد مثلاً: «أما بيزين فكان يتفرس في الوجوه ويتذكر ويتذكر.. ويتخيل لومي، وقد بلغها خبر رجوعه، ويعود ليتفرس في الوجوه، ويعجب من الانقلاب الذي حصل في معاملتهم تجاهه. ولما وضعوا أمامه قصعة الكسكسون وعليها خروف بكامل هيأته، أوشك عند رؤية منظر الخروف أن يتقيأ؛ لأنه يتذكر السيل وكراع الغنم تبدو من فوق الرمال، قد احتقن وجهه وضاق تنفسه وطلب الماء، فشرب ثم سري عنه، وتنفس الصعداء ولم يشعر بما وقع له. لكنه أكل الكسكسون والخضر ولم يمس اللحم» (ص ٨٩).

ولما كان الاسترجاع والتذكر والتخيل لصيقا بالحلم، بمعناه الشامل حيث يختلط بعالمي الحقيقة واليقظة؛ فإن هذا الأخير بدأ مهيمنا هو الآخر، في كثير من الحالات التي تبدت فيها الرغبة ملحة، عند الشخص، في التغيير والارتقاء، تارة، وفي مواجهة الخوف والفشل، تارة أخرى.

أما عنصر الحوار، بما فيه الحوار الداخلي وحديث النفس، فكان فرصة للأبطال كي يتحدث عن نفسها، وتنفس عن مكبوتها، وتبوح بأسرارها، وبالتالي تحقق تواصلها مع الذات ومع الآخر، قبولاً أو رفضاً، تعاطفاً أو تعنيفاً. وتبعاً لذلك جاءت لغة الحوار منسجمة مع الشخصية الروائية المتخيلة، معنى وأداء، (بسيطة أو مركبة، منقبضة أو منشرحة، راضية أو ساخطة..) وهو ما أكسب الحوار تنوعاً وخصوصية كونه استراتيجية تدعم عملية السرد.

يقول السارد في هذا الشاهد الحوارية الدال: «نام بيزين نوماً تتخلله كوابيس:

- كان يقول في بعضها: السيل.. السيل، أنا لا أحب السيل، السيل لا يرحم! ولما فتح عينيه عند الظهر وجد الزوج والزوجة والأولاد حوله، فقال: لن أعود إلى العمل، أريد أن أعود إلى الجبل، بعيداً عن هذه المدينة الخبيثة.

- فقالت له فيبي: ما تريد فيما بعد، فنحن أخرجناك بوسائلكم ولا يجوز أن يعلم أحد بذلك. أرجوك، لا تصرخ!

- فقال بيزين: أخرجتموني! وهل أخرجتم الآخرين؟

- فقال فرياس: لا أستطيع، إن الأمر خطير، خطير جداً، لا يتصور!

- قال بىزىن: إما أن تخرج الآخرىن وإما أن أذهب إلى الوطن ويأتوا ليحرقوا معملك أو يقتلوك.

- قال فرىاس وقد استبد به الهلع مما سمع: فهل هذا جزائى معك؟ اسمع! اسمع! قلت لك: الأمر خطير!

كرر بىزىن تهديده وقام على رجليه كمن لا يشكو من شىء وعيناه جاحظتان بعد أن كانتا مغمضتين وهو يرتعد!

- قال فرىاس: لا! لا! اهدأ، اهدأ، سأحاول، سأعمل ما فى جهدى.

- قال بىزىن: أعطهم المعمل وأخرج المسجونىن، فهم فى السجن بسبك.

تعجب بىزىن من جرأته، وتعجب من هذا الفهم الذى جد عليه ولم تكن له به صلة قط، وقال فى نفسه: هل أنا محق فى هذا الموقف؟ (ص ٧٧ - ٧٨).

وفى سياق تجميل الرواية دائماً، ينتصب الوصف مجالاً أرحب لعرض الصور والألقاب والنعوت وتعقب الأماكن والمواقع، بل وكل ما له صلة من قريب أو بعيد بعالم الشخص. لقد تنوعت المقاطع الوصفية وامتزجت بلغة السرد، صعب معها فصل الاثنىن داخل الحكاية المقترحة.

يقول السارد فى مقطع وصفى: «لقد جاء أطول من فى المركز وأضخم. عملاقان على رأس كل منهما قبعة مدورة تلمع خيوط توشية دائرتها المذهبة، صعصعتان حليقا اللحية طويلا الشاربىن، ولكن الأنظار تركزت على وسائل العذاب التى تتفطر لها الأكباد: الحزام العريض المرصع بمسامير نحاسية غليظة، والحذاء الضخم فى الرجل. فكل شخص فى القرية قد سبق له أن سمع بهذه الوسائل، يخاف الضرب بهذا الحزام والركل بهذا الحذاء الذى تحته مسامير» (ص ٤٠).

وبىن هذا الاختيار أو ذاك، أفاد الكاتب من معارف ومجالات عدة تخللت عوالم الحكاية، عبر لغة إيحائية رمزية أحياناً، وتقريرية مباشرة أحياناً أخرى، مثل ما نجد فى توظيفه للتاريخ السياسى والاقتصادى، واستثماره للمخيل الشعبى والاجتماعى، واستحضاره للخطاب الدينى الإسلامى.. وغيره؛ مما أسهم فى تعميق الرؤية العامة المشكلة لأطروحة الرواية.

## خاتمة

لاشك أن الروائي وهو يعيد صياغة الوقائع من خلال شخصه وأحداثه يفتح أمامنا آفاقاً مشرعة على الاحتمال والتأويل لمجريات الحكاية. فالذات والهوية، والسفر والحرية، والتاريخ والوطن، والموت والحياة، والقضاء والقدر.. كانت من أهم المرتكزات الموضوعية، التي استند إليها الكاتب واجتهد في تحويلها، عبر وسيط اللغة والذاكرة والخيال، إلى نص روائي عميق زاوج بين إيقاعي السرد والوصف، وآلف بين الدلالي والجمالي، في براعة وإتقان.

بهذه الرواية الممتعة أبان أحمد التوفيق عن مقدرته العالية في الحكى، واستخدامه البين لثقافته الواسعة، مما يحق للقارئ المتلقي أن يفخر به روائياً متميزاً، وأن يعد متخيله الروائي إضافة نوعية في الحقل الإبداعي المغربي والعربي، دون منازع.

## المراجع:

- ١- السيل. أحمد التوفيق. دار الأمان. الرباط. ١٩٩٨
- ٢- تحليل الخطاب الروائي. سعيد يقطين. المركز الثقافي العربي. ١٩٨٩
- ٣- الرواية والتغيير الاجتماعي. محمد الدغمومي. إفريقيا الشرق. ١٩٩١
- ٤- بناء الرواية. سيزا قاسم. دار التنوير. ١٩٨٥
- ٥- الخطاب الروائي. ميخائيل باختين. ترجمة محمد برادة. دار الأمان. ١٩٨٧
- ٦- مجلة المشكاة. العددان ٣٦/٣٧ - ٢٠٠١
- ٧- مجلة المشكاة. العدد ٥٠ - ٢٠٠٧